تحرص «غيمان» في أعدادها المتوالية على تقديم الرؤى والتجارب الشخصية للمبدعين والمبدعات، وفي هذا العدد نقدم مجموعة من التجارب النسوية مع فن الكتابة.

شهادات نسوية عن السرد

نحلة تناوش دمي

هدى العطاس*

في سبعينيات القرن المنفرط حضرت إلى الدنيا. كان عقدَ التغيير في اليمن. همهمات العجائز تشي بامتعاضهن: "لقد تغير الوادي وانفلت الحال!".

وحينما استطاع رأسي حمل نظرتي إلى أعلى، راقبت سماء الوادي حيث تتربع كقطعة حلوى، وجباله المقدودة بعناية: أثداء منبسطة لمساقط السيل، شخب غزير من اللبن المنهمر بجموح. هكذا تراءت لي. لم تكن أثداء الجبل تحتجب بساتر، بينما نساء وادي الحميم يتسربلن السواد وإن كنَّ يطرِّزن سواد ملابسهن ببعض الزركشة، فأنى لهن زركشة أعمارهن المسفوحة بانتظار الغائبين! الغياب كان قدرهن والانتظار الممض كان الوسيلة القسرية لتزجية الحزن، وليزدردن اللحظات المهدورة في أعمارهن العاطفية، الغائب في الغالب رجل سرقه المهجر، أباً أخاً زوجاً، أو وعداً طال انتظاره.

كان عالم طفولتي نسوياً خالصاً، يحضر الرجل فيه كاستيهام محفوف بمتعة المجهول والخوف منه. توارثت نساء العائلة -حد الاعتياد اللا مبالي- انتظار رجالهن المهاجرين إلى القرن الأفريقي وشرق آسيا وشبه القارة الهندية، ومن ثم أضيفت بلدان النفط العربية مهاجر جديدة.

عجائز الوادي كنَّ يؤكدن أن الوادي وناسه قد عصف بهم التغيير. وأتذكرني طفلة تلصق أذنها بالنافذة (المصكوكة) بعنف، أصيخ السمع إلى أهازيج الشعارات الثورية التي تندد بالمنظومة التقليدية وعلى رأسها طبقة "السادة" التي أنحدر منها. أتذكر برطمات أمي إثر غلقها المتوتر للنافذة. كان أحد رجال البروليتاريا، المحتدمة كخطاب، يصرخ بملحمة أكل اللحم النيئ بعد أن عادت بهم "القلابات" (شاحنات النقل) كما يطلق عليها في الوادي، عادت بهم من إحدى الانتفاضات الشعبية التي كانت تعم البلاد وقتها، وخاصة في وادي

* قاصة من اليمن.

حضرموت، معقل الفكـر الرجعي كما كان يوصف في تدابير المد الثوري.

كان السبعينيات عقد المتغيرات الاجتماعية. الطفلة التي كنتُها لم تدرك أنـه كان انعطافاً مغايراً حتى على مستوى الأسـرة، وإلاَّ لما احتلت رواية "موسم الهجرة إلى الشـمال" للروائي السـوداني، الطيب صالح، أرفف والدتي، تجاور أدوات زينتها؛ الرواية الأكثـر جرأة بمقاييـس ذلك الزمان الشـخصي، بمحمولاتها وجرعاتها المكثفة من الجنس والنسـاء والصـراع. وانفتح معها عالمـي القرائي. كنت في السابعة لم أفقهها. وبمثابرة نحلة تبحث عن رحيق يومهـا، كانت مكتبة أجـدادي وروداً أفتح بتلاتها. ولا أكتفـي نبشـاً في زوايا دار أخوالي الفسـيحة المتشامخة، بحثاً عن ولو مزقة من كتاب.

وفي ركن قصي محجوب اخترت -بعناية- صومعة لعوالمي التي كنت ألجها بشغف شاهق، منغمسة في سهوب الكتب.

لـم تكـن تلـك الصدفـة المكنونة، التـي اخترت خلالهـا كيما أتصاعـد في عوالم القراءة، سـوى غرفة المناحل. وقرب خلايا العسـل كنت أتصادى والنحـلات؛ تخلـق أقراصها العسـلية، وأخلق أنا أقراص وعيي الذي سيصبح صورة عمري القادم، أشـواقي تطلعاتـي الإنسـانية، كامـرأة قاطعتها الظروف ومجتمع لا يعتني بأشواقها وتطلعاتها بل يئدها بتدابيره الظالمة.

في أحـد الأيام لم تطـق النحلات ظلـي الثقيل عليهـا، ربمـا، وعوالمي الضاجـة اللامرئية. ولعل شـعوراً بالمنافسـة داهمها فتولت إحداها السعي بحقد شـديد. وعلى إثر صرخاتي تداعت نسـاء العائلـة إلى مكمنـي الحصين. فُضِحَ سـري، ولم تنفعني شـفاعة والدتي لديهن، خبئتْ الكتب عني، ومرضتُ بالحنين إليها.

أيامهـا كان والدي قد عاد فـي زيارة قصيرة من مهجره الطويل، ورأيـت في عيونه التواطؤ. بعدها تخلل همس مؤامرة تحاك لإجهاض عوالمي، وكانت مشروعاً لتزويجي يدار خفية، ثم علناً.

فزّ كياني الطفل، واختلجتُ مسـتنفرةً كل قاموس التمرد. وعطفاً على هذا التواطؤ القاسي صدعت علاقتي بوالـدي: الغائب الـذي انتظرناه برفيف قلوبنـا. كان مهجوسـاً - علـى منـوال مجتمعه الذكـوري- بذبـح تطلعـات الفتاة قبل أن تشـب عن الطـوق، فكيف بي ونتـرات التمرد تنضح من مسـاماتي!!؟ غير أن أمي التي سبقتني إلى عوالم الدهشـة والقراءة والحلم، وقادتني إليها، كانت لي أقـوى معين، وكانـت -ومازالـت- التحالف الأهم فـي عمري كله. وهكذا حدت بمصيري عن سـهم اجتماعي كاد المجتمع الذكوري يصوبه نحوي.

وفي انسـلال كخلاص كان القدر يواعدني بفضاء جديد ينتظرني: عـدن، مدينة مفتوحة بعيون على الأفـق، بحـر تتجاور علـى شـاطئه المتناقضات، عالـم المدينة التـي لا تحد مفاجآتـه القادمة من الريـف مثلي. منحتني (عـدن) ناصية ذاتي، كللت تطلعاتي بأدوات التمكين، توسع عالم القراءة عندي بالمكتبـات العامة ومكتبات الأصدقاء دونما رقيب، مقروناً بمجتمع منفتح، وتعليم مختلط، يجاور فيه درجي درج زميلي؛ مما نـزع رهاب الرجل داخلي، وعالج علاقات الذكورة والأنوثة التي كرسها مجتمع الوادي. نافحتنـي عدن حد التشـيع لطموحاتي، وكانـت فرصتي كيما أكون على قدم المسـاواة مع زملائـي، والذهاب في تجاوزهـم والتغلب عليهم، ولو في لعبة تنس. أستخرج العذر لتطرفي؛ فسنين التمييز السـلبي ضدي كأنثـى لا تغادر خواطري، وتلغم هواجسـي دافعة بي إلـى أقاصي الحضور المبتغى.

في عدن أيضاً حضرت السياسة، بوعيها التنظيمي،

ومزايداتهـــا الحزبية، والأجنحة المتصارعة للإخوة الأعـــداء يقتتلون علـــى ضفاف تكتـــلات المصالح والمناطق، والتشنج الأيديولوجي، ودورات الدم تغذي شجرة "الأخوين" في ربوع ما كان يسمى "جنوباً" قبل الوحدة، واستمر إلى بعد الوحدة، وكأنما دم الإخوة المســفوح بأيدي الإخوة قَدَرُ اليمنيين، وتميمة بقاء الطغاة. راودتني التنظيمات الشـبابية السياســية يومهـــا الانخراط فيها، غير أن وعيي كان قد أنجز قناعته؛ قررت عدم الانخراط في تأطير سياسي. كنت ومازلت منفكة من تكلســات الأدلجة، أياً كان دثارها، وفضلت مقعد مراقب يبدو محايداً.

على حين غرة داهمتنـــي الكتابة. لم أؤثث حياتي لمتوالياتهـــا. منفكةً مـــن وعود تقليدية وشوشـــتها نفسي، جرتني الكتابة إلى عوالمها. أغوتني النشوة الخالصـــة حينما أفرغ مـــن نصٍّ أكتبـــه، تجليات المعانـــي محمولـــةٌ على مفـــردات خاصتي، زفرات التعبير المحشـــورة داخلي وهي تنضو عن نفســـها غلاف المســـكوت، العناد المتصاعد بين دفتي النص لتاريخ المحظـــور الاجتماعي. وأهمس لكم ســـراً: تبهجنـــي انفراجة عيـــون قارئ لا يُخفي دهشـــته حينما يقـــرأ لي. كنتُ أكتبُ وكأنما أنتقمُ من تاريخ إقصائي وتهميشـــي كامرأة. أكتب وفي رأســـي كل نســـاء المعمورة، على امتـــداد التاريخ. أكتب بحزن رجعـــي لـــكل بنات جنســـي، تصطخـــب معاناتهن داخلـــي. تحضرني جداتي الحـــكاءات المحزونات. تنفلق الكتابة عن ذوات تأبى التغييب...

مع الانخراط والاســـتغراق فـــي التجربة الكتابية، خفَّ الهاجس الســـالف. لا أقول اســـترخى النزق الكتابـــي لـــديَّ؛ لأن الكتابة في ذاتهـــا قرين النزق وصنـــوه، ولكنه خف ربما نزوعاً إلى تضاريس نص أقل نتوءاً وحدية وحدة...

هـــل الكتابة فعـــل تغيير اجتماعـــي بيقينية؟ هي كذلك بالتأكيد. وإن لم تكن فعل تغيير مباشر فهي اندراج في تغيير عـــام يختضم به المجتمع. الكتابة تبتدر الأســـئلة وتتوســـل أجوبة، ولو بدت خجولة أحياناً. يقفز الســـؤال مني إليَّ قبلاً: هل شـــارك نصي في تغيير ولو يســـير؟ لا أرى تجربتي ناجزة كما أصبو، لذا لن أتنطع بحكم يهزم طموحي، غير أنني أستشـــهد بعقد من الكاتبات، السرديات على الأخـــص، انتظم فـــي العقد التســـعيني وما بعده، شـــكل فارقة وتمييزاً إيجابياً رافق متغيرات الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي اليمني والعربي والدولي، التي طفت في الســـنوات التسعينية وإلى الآن، وكان حضورهن النصي القوي دوال لمقابلات التغيير في المجتمع، ومعبراً عنه ومبشراً به أحياناً. فنبيلـــة الزبيـــر، وأروى عبده عثمـــان، ومها ناجي صـــلاح، ونادية الكوكباني، ومنى باشـــراحيل، وريا أحمد، ونورة زيلع، وهند هيثم... وغيرهن أخريات لســـن أقل إجادةً وتميزاً، تألقنَ وما زلن في المشهد الإبداعي والثقافي اليمني، حضوراً نوعياً ومتنوعاً وتنويعاً على ثيمات المتغير الواقعي، ودفعاً بحضور نســـوي مائز يواكبه، نشـــداناً لحضور فاعل للمرأة في كل مفاصل الفعل الاجتماعي، يفتت ما ترســـب مـــن "تغريبة" التهميـــش الطويلـــة، وإن كان المدى مفازة لا يُســـتهان بشراكها، غير أن للتجلي اجتراح المعجزات.

عندما «تجابه» الكاتبة القبيلة... وترفض النشر بإسم مستعار

هدى النعيمي*

لم يكن سهلاً قرار أن أُقدِّم نفسي للقارئ كاتبةَ قصة، فأنا باحثة في العلوم الطبيعية، الفيزياء هي مجال دراستي الأكاديمية، وهي مجال عملي وانشغالي. والكتابة بالنسبة إليَّ هي ثوب العيد الذي أرتديه عندما أفرح، وهي أيضاً الشريان الذي يقطع نفسه ليسيل منه حزني الدفين، هي دنياي التي لا يدري بها إلا الأقربون، لا يدري بهواها إلا الأحبة. لم يكن سهلاً أن أعلن أني مغرمة بعالم الكتابة والعزف على أوتار الكلمة. مولعة أنا منذ حين بتسطير القصة في قالب فني اصطلح على تسميته قصصاً قصيرة. ومع اتخاذ القرار، كان لزاماً أن أختار ما بين اسم مستعار أستتر به، وأحتمي به من ثورة القبيلة عندما تثور، أو أن أعلن مَنْ أكون منذ القصة الأولى. وكان الاختيار الثاني اختياري؛ فأن أملك ما أقول فعليّ أن أرفع صوتي الذي ليس بعورة، وعليّ أن أبوح بكينونتي ككاتبة قصة. ومن أقاصيصي سأخبركم من أنتم.

على غلاف المجموعة القصصية الأولى، كتبت اسمي الصريح، ورسمت على الغلاف مِكْحَلة، وهي -كما تعلمون- أداة لزينة المرأة في معظم الأحوال، ثم جئت بالكتاب لأبي الذي لم يُعلق، وجئت به لأمي ففرحت لاسمي المطبوع على غلاف كتاب ملون، ثم جئت به لأختي -رحمها الله- فقبّلت وجْنتي، وكانت القُبلة زادي للكتابة ولا تزال.

دارت المجموعة دورتها الإعلامية، وكان لها الترحيب في محيط النقد والضوء الإعلامي الجميل. والقبيلة لم تعترض ولم تحاكمني. كل المخاوف الأولى كانت وهماً صنعته سنوات من الخوف من إعلان اسم الأنثى ولو من الظهور في بطاقة عُرسها، فما بالك على غلاف يحكي أقاصيصها؟

المجموعة القصصية الثانية سمّيتها "أنثى"، وكانت تدور حول أحاسيس أنثى تتحرك عند اقترابها من رجل يعني لها المعنى، أو تتجمد عندما يقترب منها رجل لا يعني لها سوى اللا معنى. خرجت "أنثى" (المجموعة) بصوت أكثر حدة من سابقتها وأيضاً لاقت من الأصداء الجميلة ما لاقت.

القبيلة لم تغضب، والمجتمع لم يعاقبني؛ لأنني تحدثت عن رجل يُعدد الزوجات، لأن الشريعة قد أحلت له ذلك. ولم أعاقب، لأنني تحدثت عن رجل المال يتزوج من ابنة السابعة عشرة من دون رضاها، فتفرح القبيلة وتموت هي. لم أُرْفَض، لأنني كتبت عن رجل يطالب بحقوقه الزوجية من امرأة لا ترى نفسها في المرآة إلا مهشمة وخائفة من لعنات المجتمع.

* قاصة من قطر.

تقبّل المجتمع أقاصيصي في مجموعاتها الأولى والثانية والثالثة. وكان الاحتفاء من الوسط الأدبي والأهلي مفاجأة حلوة، صرت بعدها في عداد كاتبات القصة في بلدي، ولم يعترضني حقل ألغام سوى محاولة الإعلام تسليط الضوء على ذات الكاتبة من دون كتابتها. وأزعم أن ذلك أدى ويؤدي إلى خروج كاتباتنا ومبدعاتنا في المنطقة من الساحة الأدبية؛ وذلك رغبة في الأمن والسلامة، ورغبة في عدم الإضرار بالأحبة، من الذكور خصوصاً؛ وهم الذين يتفاعلون مع المجتمع الذكوري بشكل مباشر ومتواصل.

أما أنا، فقد كان عليّ أن أفصل ذاتي عن ذات الكاتبة. وعندما تحترق الكلمات على سطوري، كان لزاماً أن أخفي آثار الحريق على أطراف أصابعي.

وهكذا ضمنت لنفسي الاستمرار في الكتابة، دونما الحاجة إلى اسم مستعار. وكثيراً ما سألت نفسي: هل نبالغ في تقدير رفض مجتمعاتنا الشرقية والخليجية لصوت المرأة وكتابتها؟ أم أنني فقط ذات حظ كبير فجاءت كتاباتي برداً وسلاماً على القبيلة! ولم تنصب لي المحاكم ولم تُخرجني من جناتها!؟

فإذا كان يوم دُعيت فيه لشهادة -كهذه الشهادة- في جامعة قطر، فتحدثت كما أتحدث اليوم، ثم فُتح باب النقاش للطالبات، وكنَّ قد قرأن مجموعاتي القصصية بأمر مباشر من أستاذ المادة. إحداهن فضلت أن تكتب السؤال على ورقة صغيرة، ولا تنطق به. أرسلت الورقة عبر أخرى وأخرى حتى وصلت أمامي. في الورقة سؤال يقول: "كيف جرؤت على الاعتراف بأنك قد فكرت في رجلٍ ليس من ذوي القربى؟ كيف يزورك رجل في الخيال؟ ثم تكتُبين ذلك وتنشُرينه؟". وددت في حينها لو أنظر إلى وجه الفتاة صاحبة السؤال! وددت أن أقرأ، هل هو الغضب أم الدهشة المحرك وراء السؤال؟! ولكن أكثر من نصف اللواتي في قاعة الدرس كُنَّ من المنقبات، فلم أتبين الدافع لهذا السؤال البريء والقاسي في الوقت ذاته.

لكني أجبت وأنا أوجه نظري نحو كل واحدة من الحاضرات: نعم يا فتاتي! هذا صحيح، ربما لأنني لم أذهب لأبعد من ذلك. وكان قد مضى على زمن نشر تلك القصة عشر سنوات، وكُنت قد أصبت بالطمأنينة على أن من يقرأ الآن يعلم أن هذه السطور ليست الكاتبة ذاتها بالضرورة، ولكن بعد هذه الحادثة الصغيرة، علمت أن اللجوء إلى الاسم المستعار، أو الابتعاد كلياً عن شخص الكاتبة، قد يكون حلاً أسلم ولو إلى حين، ولكنني في الوقت نفسه أيقنت بأن قراري الأول بالإعلان عن هويتي، هو قرار صائب، وربما كان القرار الأصوب؛ فها هي فتاة عشرينية تناوش الكتابة وتبدأ في طرح الأسئلة، أو ليس هذا ما نبغيه من فعل الكتابة؟

باتجاه أكثر استدارة

نادية الكوكباني*

مدخل

لم يكن سهلاً عليَّ خوض تجربة الكتابة في مجتمعي؛ وإن بدت هذه الجملة صادمة لادعاءاته بالمساهمة والمساندة والتشجيع. وكما كان عليّ أن أتجاوز -أنا أولاً- عوائق التربية والنشأة الأولى في كوني امرأة محاذيرها كثيرة، كان عليّ أيضاً أن أتجاوز النظرة المحدودة والضيقة والتلصصية جداً في ربط كتاباتي بحياتي الخاصة، دون أن أجد نفسي أبرر وأشرح وأفسر وأنفي؛ لكن أتجاوز! وهذا جُلُّ ما قدرت عليه للتعبير عن ممارسة حريتي في حدود سلطتي على ذاتي، ليس إلا!

كتابتي عن المشاعر هي فضح («نشر غسيل»، كما قيل لي ذات مرة) وكتابتي عن السياسة خطر، وكتابتي عن المجتمع تطفُّل، وكتابتي عن الحب عيب ومؤخراً حرام!... عماذا أكتب إذاً، إذا غضضت الطرف عن كل هذا ومضيت باتجاه أكثر استدارة لاحتواء مفردات حياة شاملة نعيشها: تعريتها، تفكيكها، تغييرها، تثبيتها؛ لنفهم بها -وربما من خلالها- ذواتنا، والآخرين من حولنا...؟!

وإذا كانت كتاباتي نضحت للسطح بعزيمة وإصرار حروفها لتحريضي على الاستمرار، فإنه في كل درج مغلق لكل أنثى في مجتمعي أوراق حياتها المكتوبة بألمها ومعاناتها، تفوق ما كتبت وما سأكتب!

(١)

أن تفكر منذ البداية في نشر ما تكتب بسم مستعار، دون أن تفكر في نعيم رؤية اسمك مذيلاً على ما كتبت، مثل كبار الكتاب وكما كنت تحلم؛ فهذا يعني أنك تخشى شيئاً! لا يمكن لأحد تحديده أو معرفته غيره! لذلك عليك أن تسأل نفسك: لماذا...؟

وهذا ما فعلته، ليس بسؤال واحد فقط! لكن بوابل من الأسئلة التي نهشت عقلي الصغير وأنا لم أتجاوز الثالثة عشرة بعد! ولما لم أجد إجابات شافية قررت إلغاء الفكرة برمتها، والاحتفاظ بكل ما أدوّنه في أجندتي التي لن أجد أكثر حميمية من احتواء صفحاتها لكلماتي المتخبطة في تلك الفترة.

بعد عامين بدا لي أن تلك الأسئلة قررت أن تهاجمني وبضراوة من ركنها الهادئ، وأن تحاصرني لأجيب عليها بروية وتأنٍّ تلاشت عندها كل ثقتي بنفسي، كما يقول الآخرون عني. ووجدت أن هناك إجابة واحدة لا غير لكل تلك الأسئلة تقول إنني أخشى أن يقرأني الجميع، أنني أخشى (رغم البيئة المتقدمة نوعاً ما التي نشأت فيها) أن يقال إن هذه هي نادية، وهذه مشاعرها، وهي قد مرت بتجارب كل شخصيات كتاباتها و... و...

إذاً، الاسم المستعار هو الحل، لأقول ما أريد

* قاصة من اليمن

وأكتب كل ما يخطر على بالي، دون خوف من تلك النظرة الضيقة التي قد لا تهتم بي ككاتبة وتتجاهل إبداعي وتهتم بتأويل السطور وما وراء السطور.

ومع أني لم أكتب في السياسة ولم أنتقد الأوضاع المتردية في البلاد، لم أستخدم كلماتي لوخز شخص لا أتفق معه، لم ألمح بإشارات دالة عليه، ولم أكن أيضاً جريئة لحد فضح خبايا تلك الأحاسيس والمشاعر الجديدة، التي أمر بها لأول مرة، مع الآخر على مقاعد الدراسة وفي الحي وفي الوسط العائلي وأولاً وأخيراً في أحلامي؛ إلا أن محرر صفحة بريد القراء في تلك الصحيفة رفض نشر خواطري بحجة أنها بسم مستعار.

قوقعت كل ما كتبته بعد ذلك في درج مكتبي وتحت مخدتي، وكأن رفض المحرر جاء منقذاً لي من كثرة التفكير في ضرورة نشر ما أكتبه، ومؤكداً في الوقت نفسه مخاوفي من تذييل اسمي لنصوص قد تؤثر سلباً على رؤية الآخرين لي، سأبدو من خلالها فتاة «متحررة وجريئة» إن لم يضيفوا إليها أيضاً و«متمردة» تكتب عن الحب والحياة والأمنيات المستحيلة...! كنت أفضل فتاة «مثالية ومتفوقة وذكية...».

لم أنشر، لكني لم أتوقف عن الكتابة، وأصبحت متأكدة ألاَّ عين ثالثة ستقرأ ما أكتبه، لذلك فضفضت بإخلاص، ودونت -بمحبة- تناقضاتي وتساؤلاتي وأحلامي... وآخر كل مساء أدفن كل ذلك في درج مكتب موحش ومظلم! ورغم شعوري بقسوة ما أفعله بحروفي، لم أهتم! كانت كفة فتاة «مثالية ومتفوقة وذكية» هي الرابحة دائماً. حتى وأنا واقعة في حيرة مجال تخصصي الجامعي حال انتهائي من الثانوية العامة مالت كفة «مهندسة معمارية» على كفة «صحفية» أو «كاتبة».

ألتهم في الإجازات كماً هائلاً من الكتب المختلفة، أكتب يومياتي باستمرار ، وأعكف بقية العام على المواد المقررة. لم يكن التفوق سهلاً، خاصة إذا وجدت لك منافساً قوياً للوصول إلى المركز الأول من بين أربعين طالباً! كنت أمزح دائماً وأقول: لن أحصل على الشهادة في الهندسة المعمارية إلاَّ وقد أصبت بانحناء في العمود الفقري ودوالي في الساقين وضعف في البصر...!

(٢)

ماذا بعد؟ لم يكن سهلاً هذا السؤال وأنا أواجه به نفسي بعد حصولي على الوظيفة التي حلمت بها في الجامعة كعضو هيئة تدريس، وأيضاً بعد الاستقرار العائلي مع الزوج والأطفال.

ماذا بعد؟ وأنا أسترخي في اللاشيء، بحجة أنني تعبت كثيراً وسهرت كثيراً وبحاجة ماسة للراحة. ماذا بعد؟ وأنا أسير في دائرة مغلقة لتفاهات النفاق الاجتماعي السطحية.

ماذا بعد؟ وأنا أرى على شاشة التلفاز إحدى زميلاتي التي اختارت دراسة الأدب وأصبحت شاعرة مرموقة تستضيفها شاشات التلفزيون وتتابع أخبارها بشغف! في تلك اللحظة بالذات شيء ما ومض في أعماقي، كان مبهماً حد الحيرة، مستفزاً لكسلي واسترخائي اللامبرر، محرضاً لثورة بدت لي مستحيلة وقد فات أوانها!

ولما كان القلم أولى أدوات تنفيذها، تجاهلته، لم أعد أمسك به. ولما كان الدُّرْج المظلم، بما يحويه، ثانية أدواتها، أضعت مفتاحه. ولما كانت القراءة ثالثة أدواتها، تكاسلت حتى عن قراءة عناوين الصحف.

ولما لم أستطع الاستمرار في كل ذلك، كنت أكتب على جدار جمجمتي نصوصاً حفظتها عن

ظهر قلـــب. وكل ما كنت أحتاجه هو فقط اقتناص لحظة أحرر فيها كل ذلك المخزون من أســـره، وقد كانت أقرب مما تصورت. وجدتني في لحظة زيارتي لقريتي (كوكبان) أسترجع حادث وفاة جدي، أستمع -بحزن لا حدود- له لكل ما تداوله المقربون منه عن تلك اللحظات التي سبقت الرحيل. شعرت لحظتها كم أنا مشـــتاقة لجدي! وكم أنا بحاجة لتخليد تلك اللحظة القدرية التي لا مفر منها!

هـــذه المرة لم يرفض محـــرر الصفحة الثقافية نشـــر قصتي القصيرة حتى لو بسم مستعار؛ لكني لم أفعل، بل كتبت اســـمي كامـــلاً دون خوف؛ كنت أخشـــى أن يســـتمر هاجس الكتابة في ملاحقتي وقتاً طويـــلاً دون اصطياد لحظات لن تعود بقوتها وصدقهـــا وصفائها نفســـه مرة أخـــرى، وتدخلني فـــي دوامة النـــدم عليها. كانت قصـــة جدي بداية المشوار.

(٣)

«الكوكباني تقود زوجين للطلاق بســـبب إحدى قصصهـــا القصيرة». عنوان صارخ تمركز وســـط الصفحـــة الأخيرة الأكثر إثارة في أشـــهر صحيفة ثقافية في اليمن. مشاعر لا أستطيع وصفها حتى اللحظـــة. الخبر كان مباغتاً لي حد الدهشـــة. ما زلت بعيدة عن الوسط الأدبي. ما زلت هاوية فقط للكتابة، ولم أقرر اتخاذها حرفة. أكتب وأنشـــر كل ما يحرض فيَّ ســـاكناً من حولـــي ليس إلا... ومع ذلك ينشـــر خبر كهذا!!! اســـتقبل رئيس التحرير غضبي وأنا أتساءل عن الغرض من نشر خبر كاذب كهذا دون الرجوع إلى ســـؤال، بأن معلومات المحرر صحيحة ويمكننـــي مقاضاة الصحيفـــة لو أردت؛ هكذا بمنتهى الهدوء!!

كان لديَّ خلفية كاملة عن أسباب نشره؛ أعرف تماماً من الذي تســـبب في نشر خبر كهذا بغرض الحصول على امتيازات لدى رئيس التحرير، الذي يهمه الفرقعة والإثارة في أخبار الأدباء. تماماً كما أعـــرف أنني بالفعل كتبت قصتها التي لم تكن أبداً ســـبب طلاقهما. وفيما عدا تشـــابه أسماء القصة وبعض ملامح حياتهما فيهـــا، لم يكن ليعرف أحد أنهما المقصودان. لكني تعلمت درساً جيداً فيما لو أردت أن تصل بهدفك إلى غايته في الكتابة عليك أن تبـــدع في تخييلك الذي قـــد يتطابق مع واقعك دون أن يعرف ذلك أحد.

(٤)

ســـاعة صفاء بيني وبيني كانت كفيلة بالإجابة على كل مـــا أغلقت عليه في صندوق التســـاؤلات المؤجلة إلى حـــين. كان أكثرها إلحاحـــاً: إلى متى تؤجلـــين كتابة الروايـــة التي تحلمين بهـــا؟ هل أنا بحاجـــة إلى أن تنضـــج تجربتي فـــي القصة، كما أخبرتني صديقتي وهي تســـخر مـــن مجرد مرور فكرة كتابة رواية في أحاديثنا؟ وكيف لي أن أنضج دون أن أجرب وأحاول، كما قال أديسون، بل وأحاول ثانية إذا ما فشلت...؟!

وبشـــغف لا حدود له، ومتعة لا يضاهيها شيء، وإخلاص طوعـــت لخدمته وقتي وقراءاتي وبحثي، أصبح دوراني في فلك تلك الرواية يصيبني بدوخة لذيذة تـــزداد حدتها يوماً بعد يوم، لتصبح لحظات الكتابة حالة غيبوبة تامـــة، تعي فيها كل حروفك، تنمـــق كلماتـــك، تتابع خلالها شـــخصياتك، تتأكد فيها من معلوماتك، تبحث خلالها عن استرسال لا

يوقفه شيء وتفرُّد لا يحده حد.

حالــة غيبوبة تخصك وحــدك، لا يعلم مداها غيرك، لذلــك لا تقصِّر في واجباتك تجاه عائلتك بحضورك المادي في ساعات واجباتك المنزلية التي يعمــل فيها عقلك بتوازٍ مع جســدك، لكن كلاً في اتجاه... جســدك يزيل أتربة الغبــار ويعد أطباقاً شــهية للأكل، وعقلــك يفكر ويتابع ويســترجع ما يجب أن تكون عليه شــخصية روايتك الرئيســية. عقلك حائر في كيفية كتابة المسكوت عنه، بطريقة ترضيك وترضي من حولك دون خطأ قد يحســن اصطيــاده. عقلك عاجز عن الوصول إلى قرار في هذه النقطة بالذات؟

لم يعد الاسم المستعار هو الحل كما ظننت منذ فترة. لن أعــود للوراء إذاً، حتى لو قالوا: هي هي، حتــى لو أولــوا: هي هي؛ حتــى دوت في أعماقي صيحــة مدويــة: لا!! إنهــا روايتــك، حلمك الذي تريدين تحقيقه، جنينك الذي تتمنين مخاضه دون تشوهات تعوقه مدى الحياة.

وكان ما أردت. لم أفكر -وأنا أكتبها- في شيء عائق لكل ما تتطلبه من صدق. لم يكن في أعماقي غير ســلطة النص واحتياجاته والإخلاص له بكل محبــة ووفاء. أوصدت -بقناعة تامة- كل المقولات والاتهامــات والتحولات التي قد تواجه فهم النص، التي قد تتداخــل فيها «ناديــة» الكاتبة مع «فرح» البطلة. لم أكن غير وســيلة تســتجر كتابة أحداث ســنوات عديدة من المعاناة والألــم والقبح، لتطبب جرحاً نازفاً لم يندمل خلالهما بكل الحب.

(٥)

ما يفاجئــك عند انتهائك مــن عمل تحبه حد العشــق، أخلصت له وتفانيــت، قضيت في إنجازه شهوراً وربما أعواماً... هو تفاعل المحيطين بك في تلقيهم لهذا العمل. كان أســتاذي في الجامعة حال رؤيته لتصاميمــي المعمارية ناجــزة أمامه وأقرب لاكتمالها -كما يقول- يســألني: «مين اللي اشتغل لك؟!». أعلم جيــداً أنه يقولها من باب المديح؛ لأن الفكــرة تطورت ونمت على يديــه خطوة خطوة... لكن شــبه اكتمال الفكرة مخرجــة وملونة وجاهزة للتنافس، أوصلته حد الشك في قدراتي... لكن ما لا يعلمه هــو أنها جملة كانت -رغم إيجابيتها، كما يقول- ذات تأثير ســلبي للغاية على نفسيتي، وفي انتقاص مجهودي وســهري وتعبــي ومعاناتي التي قصدت بها الوصول إلى مرحلة شبه كاملة.

لذلك يدهشــك ألاَّ يستقبل بحفاوة صديق لك إبداعك الذي يعرف أكثر من غيره تعبك ومعاناتك فيه... وبالقدر نفســه من الدهشــة، تســتقبل ما يرد إليــك من حفــاوة واســتقبال لنصك ممن لا تعرفهــم، قراء، على اختلافهم، لا يربطك بهم أكثر مــن نص عملــت أكثر من اســتطاعتك ليكون لهم خالصاً تاماً كما أردت، محرضاً ومؤثراً لتغيير ولو بســيط، إرضاء لغرورك وإخلاصك لهدف تنشده من كتاباتك، تجد صدقهــم في الإطراء، تفاعلهم، تأثرهم، حبهم لعملك، وامتنانهم لساعات من متعة الذكريات التي تأججت نار لذتها في أعماقهم وهي تتوازى وربما تتقاطع مع كل ما مروا به.

(٦)

بالتأكيد لم أنْجُ من القراءة التلصصية، ولم أنْجُ من أســئلة كثيرة إن أجبتَ عليها قد تقع فريســة صدقك، وإن لم تجب فأنت فريســة شك الآخرين بــك؛ لذلك يلزمــك أن تراوغ، أن تجيــب بنوع من الــذكاء، أن تتعلم كيف تجعل الســؤال يتحول إلى إجابة وأنت تســتنطق الــذي أمامــك ليقول هو،

ويجيب هو على ما سألك عنه؛ هل «نادية» هي «فرح»؟ هل هذه سيرة ذاتية لتشابه أحداث البطلة مع «نادية»؟ من هي «سلى»؟ وهل «هشام» هو...؟ وهل...؟ وهل...؟

(٧)

ماذا بعد؟ لم يكن كل شيء سهلاً بالنسبة لي. لم تكن الكتابة طريقاً مفروشاً بالزهور، أو حتى معبداً وصالحاً للسير فيه منذ البداية... حتى لو بدا لكثيرين كذلك، فقد لسع ذلك الطريق باطن قدمي وآدت شرارته كامل جسدي؛ لذلك أجاهد لئلا تصل حلكة سواده إلى عقلي حتى لا يدمر جمال عالمي.

كل هذا الحصار لن يثنيني عن الكتابة، لأنني - باختصار- أتنفسها، أعلم أنها جملة تقليدية؛ لكني -وباختصار أيضاً- أتنفس الكتابة وبدونها أموت!

الكتابة... مشروع حياة آخر

زينب حفني*

كان فلوبير يقول: "الكتابة هي طريقي في الحياة"، بمعنى أن المبدع لا يكتب ليعيش، بل يعيش ليكتب. وقد أعجبني تعبير قرأته بأن من يدخل الأدب، كمن يتحمّس لاعتناق دين جديد يُكرّس له وقته وطاقته وجهده. فهل دخلتُ عالم الإبداع لأجرّب دنيا جديدة أجهلها، وأجاهر بمعتقدات مُخالفة عمّا نشأتُ عليها؟!

كثيرا ما أسأل نفسي في لحظات المصالحة معها: لماذا قررتُ أن أكتب؟! هل لحرصي على اقتحام دنيا تحترم كينونتي كأنثى؟! هل لأفجّر ثورة الغضب الكامنة في أعماقي، تجاه كل ما يرفضه عقلي وينفر منه قلبي؟! هل الغضب الذي يُسيطر على المبدع يجعله يُخرج أدبا ركيكا مضطرباً؟!

ترى الأديبة فرجينيا وولف أن الغضب مرتبط دوما بالمرأة الموهوبة، كونها تُصارع بين ما هي عليه، وبين ما يُفترض أن تكون عليه. لكنها تُحذّر من أن الفن الذي ينتج تحت ضغط الغضب، سيؤدي إلى خلق فن غير سوي، كالطفل المشوه الذي يُولد قبل أوانه.

إن مواقف وقعت لي في طفولتي هي التي كانت الشرارة الأولى التي حفّزتني لأكون كاتبة، وأكتب عن المرأة المقهورة، التي لا تستطيع أن تقف أمام عادات مجتمعها، ولا تملك القدرة على اختيار مصيرها الذي تريده، لا الذي يرسمه الآخرون لها.

من أين تستقي الأديبة موضوعات قصصها ورواياتها؟! من يختار الآخر؟! هل الأديب يختار موضوعات، أم موضوعاته التي تختاره؟! يُقال إن كل رواية خدعة تحاول التظاهر بأنها حقيقة، وأن

* روائية من السعودية

المبــدع يتخفّــى في رداء ســاحر مســتخدما تقنيات إيهامية مشابهة لشعوذات الســحرة. فالمبدع تُلاحقه صور مدفونة في أغوار طفولته، ويســتفزه وجه عابر، ويتفاعل مع تجاربه الحياتية، وتُلهمه المشاهد الساخنة التي تمــر يوميّا أمام عينيه. وأنا كغيري من الأديبات، تظلّ هذه الأشباح تُلاحقني في يقظتي ومنامي، وتندسُّ في فراشي محاولة اختراق جلدي إلى أن أستسلم لها في نهاية الأمر وأقوم بتخليدها على الورق.

علمتني الكتابة الانضباط. تعوّدتُ أن أجلس يوميًا لأكتب في ســاعات مُحددة، فأصبحتُ مثل الجندي الــذي يجب أن يســتيقظ مبكــرا ليقــوم بتمريناته الصباحيّة حتّى لا يســمن وتثقل حركته. كما علمتني الكتابة الصدق والشجاعة، فعندما شببتُ عن الطوق وتعلّمتُ كيف أمسك بقلمي جيدا بين أصابعي، وبدأت أعي ماهية الأشــياء وأفهم وجــوه الناس من حولي، كان أمامــي خياران: إما أن أقتــل المرأة في أعماقي حتّى أنفي عن إبداعــي صفة الدونية المرتبطة بعالم النساء، وإما أن أراهن على أنوثتي وأضع فيها ثقتي، وأجعلهــا في حالة التحام دائم مــع نصي، حتّى وإن أحــدث صداما مُدوّيا داخــل مجتمعي!! اخترتُ بلا تردد فضح عالم النساء والابتعاد عن رقابة المجتمع.

يقول الأديب هرمان هسه: إن الأديب لا يملك في غمرة يأسه ملاذا آخر سوى الأدب الذي يتمتّع بأكبر قدر من الصدق الممكــن. فاليأس والإحباط يدفعان الأديبة إلى ســلك طرق غير مألوفــة، وهو ما يجعل أدب المرأة انعكاساً لأحوال مجتمعها، لتميزه بالصدق الأدبي ومواجهة الحقائــق عارية في إطار مغامرات محفوفــة بالمخاطر. كما أنه فــي مجمله أدب ثوري، كونه يهــدف إلى تغيير الواقع المعاش. لذا يرى بعض النقاد أن خصوصية الكتابة النســوية ستتضاءل مع تقدّم الوعي الاجتماعي.

هــل قدّمــت الأديبــة العربية واقعهــا في قالب مســتحدث؟! هذا الســؤال دوما يدور فــي مخيلتي حــين أنتهي مــن ولادة قصة أو رواية. أشــعر بأنني هربتُ مــن واقعي بخلــق عوالم وهميــة كنتُ أحلم بها ولم تســنح لي الفرصة لتذوّقهــا، أو التورّط في مغامــرات جامحة لم أملك الشــجاعة على تجربتها وأنا في كامل وعيي، مما يُحفزني لا شعوريّا على دفع غيري إلى طرقات أردتُ يوما اقتحامها، أطلق بعدها زفيرا طويلا، شاعرة بفرحة غامرة تتملكني وأنا أرى بطلاتي اللواتي كتبت بحبر قلمي أقدارهن، يتحررن من القيود المفروضــة عليهن من مجتمعاتهن، فأفرح لفرحهن، وأحزن لحزنهن، وأسعد لسعادتهن. وكم من شخصيات صنعتها وأصابتني الغيرة منها، متمنية لو كنــتُ في مكانها! وبكيتُ مع ذلك وأنا أودعهن الوداع الأخيــر مع وضع كلمة النهايــة. نعم أحلامي حققتُ بعضهــا بين دفتي رواية أو قصــة، وبعضها ما زالت حبيسة خاطري تُلحُّ عليَّ أن أحلَّ قيودها هي الأخرى لتنعم بحريتها.

أنا ابنــة بيئتي، لم تزل التحذيــرات التي لقّنتها لــي أمي فــي صغري راســخة في فكــري، بحتميّة إســدال أهدابــي، حين أتعــرّض لموقــف يتنافى مع طبيعتي الأنثوية، لذا ما إن أســمع كلمة إطراء تُلهب مشــاعري حتّى تتخضّــب وجنتاي خجــلاً!! لكنني أتملّص من تحفظي، وأحسر الخمار عن رأسي، حين أكون في حالة حميميّة مــع إبداعي، فأمرح وأرقص مع بطلات قصصي ورواياتي، أمارس ساديتي عليهن حينا، ومازوشيتي حينا آخر، وأخرج لساني لموروثاتي الاجتماعيــة، وأقول لها: انظري! لقد خلقتُ نســاء قــادرات على الوقوف في وجهك ومحاربتك، دون أن تملكي القدرة على مقاضاتهن أو توقيفهن في مخفر شــرطة أو تشويه سمعتهن بين الناس أو حتّى منعهن من أن يعشن قصص حب حقيقية في وضح النهار.

أن تكتب المرأة فهذا يعني أنها انفصلت عن قبيلة النساء الخاضعات المستسلمات لأقدارهن المرسومة، ونجحت في أن تكتب شــهادة عشق خالدة مع ذاتها، فليــس هنــاك أجمــل من أن تكــون المــرأة مخلوقا استثنائيّا.